الوحي عند المستشرقين والحداثيين
دراسة معاصرة

م.م بهاء مهدي مظلوم

ملخّص البحث:

يُعد موضوع الوحي، وطريقة تلقّي الأنبياء التعليمات الإلهية من السماء من الموضوعات المهمة، والتي ناقشتها الدراسات الإستشراقية بشكل دقيق؛ سعياً منها للطعن بحقيقة المصدر الإلهي للوحي، وبالتالي الطعن بنبوّة نبينا الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم)؛ لذا حاولوا تفسير ظاهرة الوحي بمجموعة من التفسيرات، كجعله نبوغا فكريا نابعاً من فكر النبي نفسه، أو عن طريق التأثّر بالبيئة الخارجية، أو التلقّي من الأحبار والرهبان، وقد وافق فكر المستشرقين هذا فكر بعض الحداثيين، والذين ساروا على المنهج السابق نفسه كما أضافوا تفسيرات جديدة؛ لتتواءم مع العصر الحديث؛ لذا جاء البحث محاولا الردّ على بعض هذه الشبهات وتفنيدها بالأدلة العقلية والنقلية.

واقتضت طبيعة البحث أن يقوم على مبحثين: وقف الأول منهما على بيان مفهوم الوحي وأهميته، وطرق نزوله في القرآن الكريم؛ لكي يتسنى لنا معرفة معاني هذا المصطلح وكيفية التعامل مع تلك المعاني التي قد تتماشى أو تتعارض مع المنهج المعاصر لدراسة الوحي. وفصّل المبحث الثاني في شبهات المنهج المعاصر في دراسة الوحي عند المستشرقين والحداثيين.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا ونبيّنا الأمين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد.

إنّ من أخطر القضايا التي تناولتها المناهج الاسلامية المعاصرة بالبحث والدراسة ظاهرة الوحي إلى النبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم)؛ كون هذه الظاهرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالنبوّة؛ لأنّ من مقومات تصديق نبوّة أي نبي هي حقيقة المصدر الإلهي للوحي؛ لذلك حاول بعض الحداثيين والمستشرقين المعاصرين وحسب مناهجهم المعاصرة إيجاد تفسير ملائم لهذه الظاهرة يتوافق مع التوجهات الهادفة إلى إبعاد الوحي القرآني عن حقيقة مصدره الالهي، وجعله نابعاً من ذات النبي (صلى الله عليه واله وسلم)، وكانت تلك التصورات بعيدة عن الواقع، متأثرة بتيار الحقد والكراهية؛ لذا سنحاول طرح بعض الشبهات التي أثارها بعض منهم والرد عليها استناداً إلى أدلة عقلية او نقلية قد توصّل اليها العلماء ممّن خاض في هذا الجانب، فجاء البحث تحت عنوان:

(الوحي عند المستشرقين والحداثيين/ دراسة معاصرة)

واقتضت طبيعة البحث ان يقوم على مبحثين: وقف الاول منهما على بيان مفهوم الوحي وأهميته وطرق نزوله في القرآن الكريم؛ لكي يتسنى لنا معرفة معاني هذا المصطلح وكيفية التعامل مع تلك المعاني التي قد تتماشى أو تتعارض مع المنهج المعاصر لدراسة الوحي. وفصّل المبحث الثاني في شبهات المنهج المعاصر في دراسة الوحي.

والبحث في مسعاه هذا يسأل الله العفو والمغفرة عمّا بدر منه من خطأ أو نسيان أو غفلة أو تقصير إنّه سميع مجيب والحمد لله أولا وآخرا.

المبحث الاول: مفهوم الوحي، وأهميّته، وطرق نزوله في القرآن الكريم

المطلب الاول: مفهوم الوحي في اللغة والإصطلاح:

للوحي في اللغة والاصطلاح معانٍ عدّة ذكرها أصحاب المعجمات والعلماء في كتبهم وكانت آراؤهم متفاوتة في بعض الأحيان، ومتّفقة في أحيان أخر.

فالوحي في اللغة هو (الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وحيت إليه الكلام، ووحي وحيا، وأوحى أيضاً أي كتب)[١].

وقيل ايضاً: (أصل الوحي في اللغة: إعلام في خفاء، ولذلك صار الإلهام وحياً)[٢]، وقد يكون (على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب أو بإشارة بعض الجوارح)[٣].

وأمّا في الإصطلاح: فهو (حالة يُدرك بها الإنسان المعارف التي بها يرتفع الإختلاف والتناقض في حياة الانسان، وهذا الإدراك والتلقّي من الغيب هو المسمّى في لسان القرآن بالوحي)[٤]، أو هو (كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه إمّا بكتاب، أو برسالة ملك في منام، أو إلهام)[٥].

وقال الراغب الأصفهاني: يُقال للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى أنبيائه وحي، وذلك أضرب حسبما دلّ عليه قوله تعالى: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ))[٦]، ومعناه إمّا أن يوحي اليه وحياً بوساطة ملك فيعلمه بما يعلم البشر أنه أعلمه إمّا إلهاماً أو رؤيا وإمّا أن يُنزّل عليه كتاب كما أنزل على موسى، أو قرآناً يتلى عليه، كما أنزل على نبينا محمد (صلى الله عليه واله وسلم)، وكل هذا إعلام خفي وإن إختلفت أسباب الإعلام فيه [٧]. وعرّفه القسطلاني بقوله: (إعلام الله تعالى أنبياؤه الشيء، إما بكتاب أو برسالة ملك أو منام أو إلهام)[٨].

وعرّفه السيد محمد باقر الصدر بأنه: (الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالى برسوله، نظراً إلى خفائها ودقتها وعدم تمكن الاخرين من الاحساس بها)[٩].

ولم يكن الوحي هو الطريقة التي تلقّى بها خاتم الأنبياء وحده كلمات الله تعالى، بل هو الطريقة العامة لإتصال الأنبياء بالله سبحانه، وتلقّيهم للكتب السماوية منه تعالى، كما حدّث الله بذلك رسوله في قوله عز وجل: ((إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا))[١٠].

وزبدة القول ما ذهب اليه ضياء الدين عتر بقوله: (إلقاء الله الكلام أو المعنى في نفس الرسول بخفاء وسرعة بملك أو دون ملك)[١١].

المطلب الثاني: أهميّة الوحي وغايته وصور نزوله:

المقصد الاول: أهميّة الوحي وغايته:

يحمل الوحي بين ثنايا ما يُلقى به من معارف بوصفه ظاهرة خارقة لحدود عالمين مختلفين ورابطة بينهما حكمة كبيرة، تمثّل أساس من أسس العلاقة بين الله سبحانه وتعالى وعباده، فمعارف الوحي الملقاة إلى الأنبياء (عليهم السلام) لتبليغها إلى البشر تهدف إلى الإنذار والتبشير ، وهؤلاء الأنبياء هم المنذرون المبشرون[١٢]، ((وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ))[١٣]، وإرسال هؤلاء المصطفين إلى سائر البشر لتبليغهم الأحكام والأوامر الإلهية إنّما هو لطف إلهي وتحقيق لمفهوم العدالة الإلهية بل إنّ من لوازم الإلوهية أن ينزل الوحي الإلهي على جماعة من البشر هم الأنبياء (عليهم السلام)[١٤].

وهكذا توالت النبوّات مبشّرة بالهداية الإلهية وداعية الإنسان إلى صراط مستقيم؛ لتنتشله من براثن الماديّة وأهواء النفس وغرائزها، وفي ذلك قال الإمام علي (عليه السلام): (وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول)[١٥]، (فوظيفة الرسل في حقيقتها إستخراج مكنون الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ لأنّ غاية الوحي الإلهي في ختام الدعوة الدينية عموماً هي الدعوة إلى دين الفطرة الذي يتمثّل بما هو مكنون في فطرة الناس، وإنّما حجبهم عنها ما أبتلوا به من الشرك والمعصية ممّا يوجب عليهم غلبة الشقوة ونزول السخط الإلهي)[١٦].

وهدف الوحي فيما يريد إثباته على الناس هو الإحتجاج عليهم بوجود البشارة والإنذار والبيان والأحكام والمعارف والأوامر، ((رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا))[١٧]؛ لجهلهم ما يجب عمله من أصول الإيمان، وما تصحّ به الأنفس وتتزكى من صالح الاعمال.[١٨].

وتتجلّى أهمية الوحي في العقيدة الإسلامية في النقاط الآتية:

١- إنّه أساس العقيدة عند الانسان؛ لأنّه يمثّل (جوهر الرسالة بما يوحي الله فيه من عقيدة وتشريع، وما يكلّف به النبي من دعوة الناس إلى الدين)[١٩].

٢- إنّ الوحي هو الطريق الوحيد (الذي بدونه لا تستطيع البشرية أن تتوصّل إلى حقائق ما وراء المادة، في قبال إمكاننا أن نتوصّل إلى حقائق علوم الكون والحياة بالمنطق التجريبي الرياضي)[٢٠]،

فالوحي هو الطريق إلى تعليم الإنسان ما ليس في وسعه بحسب الطرق المألوفة عنده والتي جهزه الله بها أن ينال علمه [٢١].

٣- إنّه ما من تفسير لما يظهر على أيدي الأنبياء (عليهم السلام) من ظواهر خارقة، وما تحمله رسالاتهم من خصائص وأبعاد إلّا بالوحي، (فإنّنا لا نجد ديناً من الأديان يخلو من فكرة الوحي مهما إختلفت المنازع في تصويره، فالتخلي عن فكرة الوحي تقويض للدين من أساسه لا سيّما الأديان السماوية)[٢٢].

من هذا يتّضح إنّ الوحي هو ضرورة من ضرورات تخليد الإنسان على وجه الأرض، بما أودعه الله سبحانه وتعالى من قابليات لتلقّي تلك المعارف والأحكام التي يسيّر بها حياته؛ لأنّه خليفة الله على هذه المعمورة، ولا يمكن عقلاً أن يجعل الله الإنسان بدون إرشاد أو توجيه فجعل الأنبياء وأرفدهم بعلمه عن طريق الوحي، وبهذا خلق الله الإنسان، وأودعه الاستعداد الكامل والأرضية الصالحة، فإفاضة هذه الموهبة منه سبحانه[٢٣].

المقصد الثاني: صور نزول الوحي في القرآن الكريم:

لقد ذكر القرآن الكريم عدة صور للوحي في كيفية إنزاله على أنبيائه (عليهم السلام) **أوضحها سبحانه** في قوله تعالى: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ))[٢٤]:

الصورة الاولى: والمقصود بها أن يلقي الله سبحانه وتعالى المعنى في قلب النبي مباشرة:

ويكون ذلك على قسمين: في المنام وفي اليقظة، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله سبحانه: ((لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا))[٢٥]، وممّا رُوي عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع: ألا إنّ الروح الأمين نفث في روعي أنّه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله عز وجلّ وأجملوا في الطلب ...)[٢٦].

الصورة الثانية: التكليم من وراء حجاب:

تتمثّل هذه الطريقة بسماع النبي المرسل صوتاً دون أن يرى صاحب هذا الصوت، فيسمع النبي المرسل كلام الله عز وجل من وراء جبل أو شجرة أو شيء آخر وهذا الذي حصل للنبي موسى (عليه السلام)[٢٧].

وقد ورد هذا المعنى صريحاً في قوله تعالى: ((وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا))[٢٨]، وهو من جنس ما كان يتلقّاه نبيّنا الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ ذكر الشيخ المفيد (أما الوحي من الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان تارة بإسماعه الكلام من غير واسطة، وتارة بإسماعه الكلام على ألسن الملائكة)[٢٩].

الصورة الثالثة: إرسال رسول من الملائكة كجبريل (عليه السلام) لأحد من خلقه:

إذ يوحي ذلك الرسول إلى ذلك المرسَل إليه بإذن ربه من أمر ونهي وغير ذلك، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ((قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ))[٣٠] وقد حصل هذا لرسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

المطلب الثالث: أنواع الوحي في القرآن الكريم:

لقد ذكر القرآن الكريم أنواع عدّة للوحي كما أشار في بعض آياته الكريمة، منها ما يخص البشر إذ هي تبيّن طرق تكليمه تعالى لعباده: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم))[٣١]، فقد عبّر تعالى في هذه الآية عن الوحي لأنبيائه سواء كان مباشرا دون واسطة، كالإلهام والقذف في الروع، أو الوحي بالتكليم ولكن من وراء حجاب، أو قد يكون الوحي بواسطة ملك الوحي الذي يرسله الله إلى أنبيائه (عليهم السلام).

وقد يكون الوحي إلى غير الأنبياء، وقد ذكره القرآن الكريم وأشار إليه في بعض الآيات الكريمة ولكن بدون تفصيل وبيان لذلك الوحي، كالوحي إلى الحيوانات أو مظاهر الطبيعة وغيرها، وقد إعتمد بعض المفسرين على مقابلة

بعض الآيات ببعضها وتفسير بعضها بدلالة البعض الاخر، وقد كان الوحي إلى غير الأنبياء يدور في إطار الإلهام والتسخير، وقد ورد ذكر الوحي في القرآن الكريم على أنّه يُلقى إلى:

١- الملائكة: ((إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ))[٣٢].

٢- الحواريّون: ((وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُون))[٣٣].

٣- الأسباط من أنبياء بني إسرائيل: كما في قوله تـــــعالى: ((إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا))[٣٤].

٤- عامّة البشر: كأم موسى (عليه السلام): ((وَأَوْحَيْنَا إِلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ))[٣٥].

٥- الوحي إلى المخلوقات الأخرى: كقوله تعالى: ((وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ))[٣٦]، والوحي إلى النحل هو إلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة، وكذا ورد المعنى في النفس من طريق الوسوسة أو بالإشارة وكل ذلك من الوحي[٣٧].

٦- الوحي إلى مظاهر الطبيعة من الجمادات وغيرها: ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[٣٨].

المبحث الثاني: شبهات المنهج المعاصر في دراسة الوحي

للمستشرقين والحداثيين شبهات وآراء حول قضية الوحي تناولها كل منهم حسب توجّهه بين الرفض والتشكيك، وكان البحث فيها على مطلبين:

المطلب الاول: شبهات المستشرقين:

الشبهة الاولى: يعتقد المستشرقون أنّ الوحي عند النبي (صلى الله عليه واله وسلم) مجرد أفكار ورغبات تجمّعت في المجال (اللاشعوري) للنبي (صلى الله عليه واله وسلم)، وبمرور الزمن تفاعلت هذه المشاعر والأفكار وقويت حتى إذا برزت هذه الأفكار إلى شعور الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) تجلّت بقوة حتى يبلغ من إمتلاء عاطفته بها أنّه يظنّ ويخيّل إليه أنّه يتلقّاها من ذات خارجية عليا يراها ويسمع كلامها دون أن يكون في الخارج على الحقيقة أي شيء من ذلك[٣٩].

يقول جولد تسيهر: (وكان قد بلغ الأربعين من عمره – أي النبي (صلى الله عليه واله وسلم) – وأخذ يقضي وقته على ما تعوّد من الخلوة في الغيران المجاورة للمدينة يريد مسقط رأسه أي مكة حيث كان نهباً للأحلام القوية والرؤى الدينية وتملّكه شعور بأنّ الله يدعوه بقوة تزداد شيئا فشيئا ليذهب إلى قومه منذراً إيّاهم بما يؤدي بهم ضلالهم من الخسران المبين، وبكلمة واحدة أحسّ بقوة لا يستطيع لـــــــها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربّياً لشعبه)[٤٠].

الرد على هذه الشبهة:

يظهر من كلام المستشرقين أنّهم يحسنون الظن بالنبي (صلى الله عليه واله وسلم) من حيث لا يشعرون، فكلامهم بإنّ له شعور بأنّ الله سبحانه وتعالى يدعوه بقوة تزداد شيئاً فشيئاً ليذهب إلى قومه منذراً إيّاهم من الخسران المبين، واضح الدلالة بما ذكره علماء المسلمين وبما أطلقوا عليه صورة من صور الوحي وهو (الإلهام) فإقبال النبي (صلى الله عليه واله وسلم) إلى دعوة قومه والتأمّل في خلق السماوات والأرض، وخلوته، ما هي إلّا تأمّل بقوة غيبية تُدير هذا الكون، وهذا لم يحصل لغير الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) في وقته وهي صورة من صور الوحي كما ذكرنا آنفاً.

الشبهة الثانية: ذكر جولد تسيهر (إنّ تبشير النبي العربي ليس إلّا مزيجاً ومنتخباً من معارف و آراء دينية عرفها وانتقاها بسبب إتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثّر بها تأثّراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ وطنه، وهذه التعاليم التي أخذها من تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الإتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية.

ولقد تأثّر بهذه الأفكار تأثيراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدرك بإيحاء قوته التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة إنطوى عليها قلبه كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً، فأصبح على يقين بأنّه أداة لهذا الوحي)[٤١].

الرد على هذه الشبهة:

إنّ البيئة التي عاش فيها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) كانت بعيدة كل البعد عن الأفكار الدينية، وحافلة بكثير من المنكرات والفواحش، وكانت مكة في معزل عن التجمعات الدينية، ولم يكن فيها من اليهود إلّا القليل، وهذا ما ذكرته كتب السّير، بل إنّ المتعارف أنّ اليهود وأحبارهم كان مركزهم في المدينة المنورة لا في مكة حتى يتأثّر بهم الرسول (صلى الله عليه واله وسلم)، وكانوا من عامّة اليهود وفي معزل عن مراكزهم الثقافية والسياسية، فأيّ تأثير فكري أو نفسي يمكن أن يكون لهؤلاء، بل كانوا مستضعفين في زمن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وهذا ما نراه واضحاً في القرآن الكريم في قولهِ تعالى: ((ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ))[٤٢] .

ونفس الصورة تنطبق على الديانة المسيحية، فلم تكن أحسن حالاً من اليهودية، بل كانت ذات طقوس منحطّة وخلافات لا أساس لها، هذا من جانب. ومن جانب آخر لو سلمنا جدلاً أنّ البيئة التي أُوحي للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) فيها وما حولها كانت مليئة بالرهبان والأحبار وإنّهم كانوا على عقيدة صحيحة، فهل حصل أنّ النبي (صلى الله عليه واله وسلم) رحل إليهم ليتعلّم منهم أو يستمع إليهم؟ وهل ذكرت المصادر التاريخية ذلك؟.

فحين سافر النبي (صلى الله عليه واله وسلم) مع أمّه إلى أخواله بني النجار في يثرب كان صغير السن، ولم يذكر التاريخ أنّه أعاد تلك الرحلة مرة أخرى في شبابه، وتذكر كتب السّير أنّه ما رحل إلى الشام قبل بعثته إلّا مرتين، مرة مع عمّه أبو طالب وهو صغير السن لم يتجاوز الثانية عشر من عمره ولم يحدث أنّه إنفرد في هذه الرحلة بأحد الرهبان.

وأمّا الرحلة الثانية فقد خرج في تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد، فلم يتفرّغ لأي أمر ديني بل كان همه أن يبيع تجارته على أحسن وجه وكيف يحقّق أرباحاً كي يرضي خديجة التي ائتمنته على أغلب أموالها، ولو كان إلتقى ببعض الأحبار لذكرهم المستشرقون بأسمائهم كما ذكروا بحيرى الراهب[٤٣].

ولو سلمنا جدلاً أنّه إلتقى بالرهبان والأحبار فهل تكفي فترة شهر أو شهرين بأن يأخذ عنهم نظاماً متكاملاً يشتمل على عقائد وشرائع وعبادات؟.

كما إنَّ افتراض تعلّم النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من نصارى الشّام وغيرهم لا يتفق مع واقع الحيرة والتردد في موقف المشركين من دعوة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ونسبة الرسالة إلى الوحي الالهي؛ لأنَّ مثل تلك العلاقة لو كانت موجودة لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم من الذين عاصروه وعايشوه في مجتمع ضيق وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من أسفار، وأولئك لم يتركوا أية تهم وأكاذيب ضد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، وافترضوا في الوحي الفروض المتعددة، ومنها فرض التعلم والتلقي من اشخاص معينين[٤٤].

ويثبت من ذلك أنّ الذي كان يتلقاه (صلى الله عليه واله وسلم) ماهو إلّا وحي من الله سبحانه وتعالى بواسطة الملك جبرائيل (عليه السلام)، ولم يتلقّاه من راهب ولا كاهن ولا فيلسوف، فيثبت بذلك إنّ الوحي ليس من تأثير البيئة، ولا من عند نفسه بل خارج عن ذاته (صلى الله عليه واله وسلم)، كما إنّ الحقائق العلمية التي جاء بها القرآن الكريم _ ولو أنّا ذكرنا بأنّ الأدلة ستكون أدلّة عقلية؛ لأنّها متسالم عليها من الطرفين، ولكنّ هذا لا يمنع من الإستدلال بالقرآن الكريم _ كيف نتجت من بيئة صحراوية لا تعرف سوى القتل والسبي وحفظ الشعر، فكيف بهذه الحقائق العلمية التي إنتهت لها التجارب العلمية الحديثة بعد جهود ودراسة كثيرة؟، و هذا ما يؤكّد لنا الإنفصال التام بين الوحي والفكر النبوي الذي ينسبه المستشرقون للنبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) من نفسه، ومن هذه الشواهد القرآنية قوله سبحانه: ((وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ))[٤٥]، و قوله: ((وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ))[٤٦]، وقوله: ((خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ))[٤٧]، فقانون الزوجية، وكيفية التلاقح النباتي عن طريق الرياح، والحمل في داخل رحم المرأة، ما هو إلّا حقائق علمية اكتشفها العلم مؤخراً، فكيف أتى بها النبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) في ذلك الوقت وفي تلك البيئة ما لم تكن من إله قادر، وعالم بكل الأمور، وجاءت للرسول عن طريق الوحي؟.

الشبهة الثالثة: زعمهم أنّ الوحي نوع من أنواع السحر والشعوذة[٤٨]، وزعموا أنّ محمداً (صلى الله عليه واله وسلم) عرف خدع السحرة وحيل الروحانيين، ومارسها في دقة ولباقة، وإنّه كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية. وأرادوا بالجلسات الروحانية: الجلسات الإحتيالية التي يحضّرونها في أوربا على أنّها تحضير أرواح [٤٩].

ولا يختلف عنه ماكسيم رودنسون إذ يصف نبوّة النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم): (بأنّها عوارض كهانة لا أمارات نبوّة)[٥٠].

الرد على هذه الشبهة:

أوّلا: يمكن تمييز الأنبياء وأصحاب المعجزات عن أصحاب الشعوذة والسحر بإعتبار إنّ صاحب المعجزة تتلألأ أنوار التقوى في وجهه، وتلوح آثار الصلاح في محيّاه، ويتميّز بالخلق الحسن، ويمتاز بالصفح، والعفو، والاستغفار، والجود، والسخاء، والإيثار، والاعراض عن حب الدنيا، وعن إتباع الشهوات[٥١].

ثانياً: إنّ الأنبياء قد إختط الله سبحانه منهجهم، فسلكوا سبيل الحق، فلا يأتي منهم الّا الصدق، ولا يأمرون ولا يتصرفون الّا بالبر والتقوى، والعدل والخير، ويبتغون الآخرة، ويعبدون الله وحده، ولا نرى أحد من الأنبياء قد سلك غير المنهج الرباني: ((لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)) [٥٢].

ثالثاً: إنّ معجزات الأنبياء لا يقدر عليها إنس ولا جان وإنّما تحصل بأمر الله سبحانه، فهي خاصّة بهم لا يقدر على معارضتها أحد، وسِيَر الأنبياء (عليهم السلام) مليئة بهذه القصص، بل إنّهم قد عجزوا أن يأتوا بآية واحدة، وخاصة عندما أعجزهم القرآن الكريم في ذلك: ((قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))[٥٣]، وهذا خلاف مع من جاء ليقارن بين الوحي والشعوذة والسحر فإنّ أصحاب الشعوذة والسحر يختلفون إطلاقاً عن الأنبياء وما جاءوا به من معجزات.

الشبهة الرابعة: إنّ الوحي من إلهام النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وابتداعه:

ذهب بعض المستشرقين وغيرهم من الحداثيين وملاحدة هذا العصر إلى القول: نحن نشك في كون محمد مصلحاً اجتماعياً، وعبقرياً فذاً، وإنّما نقول إنّ منبع ذلك إلهام من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال: إنّه وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس[٥٤].

وقد اعتمد بعض المعاصرين على قول المستشرق اليهودي جولد تسيهر الذي قال: إنّ محمداً كان في مكة يشعر أنّه نبي يتيم، و رسالته من سلسلة رسل التوراة، ولهذا عليه مثل أولئك الرسل، أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال. ويقول ايضاً: في العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد (صلى الله عليه واله وسلم) الصورة التي أوجبتها عليه حميمته الملتهبة، في شكل وهمي وخيالي حاد، وتلقائي ذاتي، وأخذ يُظهر لجميع معارضيه ومناقضيه العقيدة السائدة في نفسه ويقول إنّها قوة الله الخالق وسلطانه غير المحدود، وعن اقتراب يوم الحساب الذي يتمثّله ويراه في الرؤى الوحيية [٥٥].

وقال المستشرق اليهودي ماكسيم رودونسون: (إنّ محمداً وليس الله هو الذي قال ذلك بناءً على تجارب ومشاهدات، وليس بناءً على وحي)[٥٦].

وذكر (إنّ منشأ ادّعاء نظرية الوحي عند محمد هو خواطره، وعن دوره الخالص في الاطار العام لهداية البشرية بطريق رسل الله ... في أثناء تأمّلـــــــه في هذا الشأن استقر فيه الإعتقاد بأنّ رسالة الله لابدّ أن تنزل عليه دون غيره)[٥٧].

وأمّا المستشرق اليهودي مصويل مرجليوث فقد زعم أنّ الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) قد ضلّل الناس عمداً بادعائه الوحي[٥٨].

وهذه كلها شبهات هي بالأصل للمستشرقين ومَن سار على نهجهم من الحداثيين في الوقت المعاصر استخدموها بمناهج معاصرة وخاصة لدراسة ظاهرة الوحي، ولكن لو سلّطنا الضوء على هذه الشبهات لوجدنا أنّها لا تنهض أمام القواعد الأساسية في إثبات الوحي عند المسلمين.

الرد على هذه الشبهات:

لمّا كان الوحي هو الأساس الذي تقوم عليه جميع الحقائق الإسلامية، والتشريعات التي جاءت لتنظم حياة المسلمين، وهو المدخل للتصديق بكل ما جاء به الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) من أوامر غيبية؛ فكان ذلك دافعاً لأعداء الإسلام للتشكيك في حقيقة الوحي الإلهي، وبالتالي تشكيك المسلمين في دينهم؛ لأنّ التشكيك بالوحي تشكيك بكل التشريعات والأوامر الإلهية، وقد قامت بعض الأدلة النقلية والعقلية على بطلان ذلك، ومنها: قوله تعالى: ((و مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى))[٥٩]، وقوله تعالى: ((إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا))[٦٠]، كما ورد في الحديث النبوي الشريف قوله (صلى الله عليه واله وسلم): (أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشدّ عليّ فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول)[٦١]، وفي حديثٍ ثانٍ عن عائشة أنّها قالت: (أول ما بدأ به رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) من الوحي هو الرؤيا الصالحة في النوم)[٦٢].

وفي هذين الحديثين دلالة واضحة على صدق ومقبولية ما جاء به الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) من الوحي؛ لأنّ الناظر لهذا الدين وحقيقته يرى فيه التميز والصفاء بكل ما جاء به من عقائد وشرائع عامة تشمل جميع نواحي الحياة، وهذا بحد ذاته رداً على من ادعى إنّ الدين أو الوحي هو إلهام أو من خيال النبي (صلى الله عليه واله وسلم).

وأمّا الأدلة العقلية على ذلك فهي كثيرة منها:

إنّ هذه الشبهة بنيت على مقدمات مبناها إنّ فكرة الوحي تكوّنت نتيجة تشبّع العقل الباطن بما في البيئة من ثقافات وعقائد وغير ذلك، ممّا جعل نفسه الصافية تفيض بما فيها من ذخائر[٦٣]، وبالنتيجة فإنّ كل هذه المزاعم التي يطلقها المستشرقون وغيرهم يبطلها الإسلام والقرآن، والعلم يكشف كل يوم أسرارا للناس في الأنفس والآفاق ممّا يؤكّد إنّه تنزيل إلهي وليس فيه أدنى شيء للعقل البشري؛ لأنّه أعجز كل من يريد أن يؤلّف مثل آيات القرآن الكريم؛ لذا حار هؤلاء في نبوة النبي الاكرم (صلى الله عليه وله وسلم) فزعموا أنّه يلقفه من هنا وهناك، وهو نتاج فكري للنبي (صلى الله عليه واله وسلم)، ولا نعلم كيف نسبوا كل هذا النتاج الفكري للرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) وهم ينعتونه بأنّه لا يقرأ ولا يكتب، وهو يتيم وراعي غنم في مكة، فكيف اجتمع هذا التعارض؟

إضافة إلى إنّ الوحي كان يَفتُر عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) فترات وهو بأشد الحاجة اليه، وخاصّة عندما لا يجد جواباً لسؤال قد وُجّه له، فالوحي ليس إلهاماً فقط، بل هو إخبار من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم بواسطة أو بدون واسطة ويكون قلبياً وسمعياً وبصرياً [٦٤].

وقد يتأخر الوحي عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) لفترات معيّنة إذ ذكر السيوطي (عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصفوا لهم أمره وبعض قوله فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقوّل سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو؟ فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد (صلى الله عليه واله وسلم) فجاؤوا رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) فسألوه فقال: أخبركم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن فانصرفوا ومكث رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحيا ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحتى أحزن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح)[٦٥].

وهذا دليل على أنّ القرآن الكريم تنزيل من حكيمٍ حميد لا دخل لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بشيء منه، وفي هذا إبطال لشبهة أنّ الوحي من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بل هو وحي إلهي من الله سبحانه وحده دون تدخل بشري فيه.

المطلب الثاني: شبهات الحداثيين:

إرتبط القرآن الكريم إرتباطاً وثيقاً بظاهرة الوحي، فالايمان بالوحي ضرورة حتمية للإيمان بالقرآن الكريم ورفضها رفض للقرآن الكريم، ورسالة الاسلام؛ لأنّ الوحي هو وسيلة إنزال كتاب الله الحكيم على رسوله الامين كما جاء في قوله سبحانه: ((وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)) [٦٦].

وقد عمّت ظاهرة الوحي جميع الأنبياء (عليهم السلام)؛ لأنّ مصدرها واحد وغايتها واحدة، ولقد كان للحداثيين آراء متفاوتة في قبول ورفض ظاهرة الوحي، إذ أنّ أغلبهم يميل إلى الرفض بطريقة أو بأُخرى، وسنتطرق إلى بعض الحداثيين العرب الذين كانت لهم آراء في هذا الموضوع، ومنهم:

أولاً: حسن حنفي:

عرض حسن حنفي قضية نزول القرآن الكريم بواسطة الوحي وهل كان بالمعنى أم باللفظ، أم باللفظ والمعنى معاً، فقال: والحقيقة إنّ الوحي بالعلم الإلهي بالمعنى وليس باللفظ، والأغلب هو نزول جبرائيل (عليه السلام) بالقرآن باللغة العربية وقراءة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) له بالعربية لفظاً ومعنى[٦٧].

وقد ردّ الباحثون كلام حسن حنفي بالقول: (إنّه لا مانع من أن تكون الكتب السماوية مدوّنة باللوح المحفوظ بلغات الأقوام التي نزلت إليهم مستشهدين بقوله تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[٦٨]، فالوحي لكل نبي بلغة قومه، والنص أو الكتاب المنزل

عليه مدوّن في هذه اللغة باللوح المحفوظ، وهذا تصوّر أسلم؛ لأنّ المسألة تحتاج إلى السمع أو تأويل صحيح دقيق للنص الوارد فيها)[٦٩].

وقد ذكر حسن حنفي بأنّ الوحي تجربة بشرية إنسانية، ولو كان الوحي ممكناً؛ لأوحى الله سبحانه وتعالى إلى أفراد البشر عامة، ولم يخص به أفرادا بجعلهم واسطة بينه وبين خلقه، وهذا مردود لأنّ عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقّي الوحي عن الله سبحانه، لا مباشرة ولا بواسطة الملك، حتى لو جاءهم الملك لم يستطيعوا رؤيته إلّا إذا ظهر بصورة إنسان، وحينئذٍ يعود اللبس في إمكانية تلقّي الوحي من قبل البشر، ويبقى الأمر لله سبحانه وتعالى بأن اقتضت حكمته بأن يجعل من بني الإنسان طائفة مميّزة لها استعداد خاص يؤهّلها أن تتلقّى من الله الوحي ثم تؤدّيه إلى عامّة الناس [٧٠].

ثانياً: محمد آركون:

لقد سعى آركون إلى طرح رؤية جديدة لظاهرة الوحي، وذلك في محاولاته إلى تجديد الفكر الإسلامي، فهو يرى إنّ مفهوم الوحي ظاهرة لغوية وثقافية قبل أن تكون عبارة عن تركيب لاهوتي وما يوصل إليه هذا الأمر من نتيجة تجعل كل ظاهرة لغوية جديدة تمثّل وجود الوحي[٧١].

إذ إنّ الرسالات المنقولة بواسطة أنبياء بني إسرائيل، وبواسطة نبي الله عيسى (عليه السلام)، وبواسطة نبينا محمد (صلى الله عليه واله وسلم) كانت في بدايتها شفوية، سُمعت وحُفظت عن ظهر قلب، بغض النظر عن مكانتها اللّاهوتية في تلك المرحلة من عهد التنزيل، ثم حصل الإنتقال إلى النص المكتوب، ثم تثبيت وجمع كتابي ضمن ظروف تاريخية معيّنة تعرضت للنقد والضبط والتحقّق التاريخي[٧٢].

ويذكر آركون إنّ مسألة الوحي مسألة دقيقة جداً وحرجة، خصوصاً لمن يريد دراستها، ويدّعي إنّه من الصعب ترجمة مفردات القرآن وصياغته إلى لغتنا الحديثة المعلمنة (العلمانية) والتي يقصد بها المنزوع عنها غلاف التقديس، ومنها مفردة الوحي، وهو يتحدّث عن اللغة الفرنسية، ويقول: (إنّ هذه اللغات أصبحت مقطوعة عن أنظمة الدلالات المحيطة بالخطاب الديني في اللغات السامية (العربية والعبرية))[٧٣].

ويُردّ على آركون إنّه نسي أنّه عندما وصف الوحي بأنّه ظاهرة لغوية ثقافية، أنّه الكلام المقدّس الذي أوحى به رب العباد إلى أنبيائه ورسله لإيصاله إلى أقوامهم لهدايتهم، وظنّ أنّ نزول الوحي باللغة العربية، أجاز له نقد نص الوحي، لكنّ لغة الوحي أصبحت مقدّسة عندما أصبحت لغة القرآن الكريم، أمّا ما يتعلّق بنظرته للوحي الذي رفض وضع تعريف محدّد له، أو حتى ترجمة مفردة الوحي إلى اللغة الفرنسية بعد أن وجد صعوبة في ذلك، فيما تجاهل آركون ما تناوله علماء المسلمين من تعريف للوحي بأنّه: (عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثّل لسمعه أو بغير صوت، والفرق بينه وبين الإلهام بأنّ الإلهام وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها، من أي آتٍ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور)[٧٤].

وإنّ ما قاله عن لغة الوحي (العربية) أنّه من الصعب ترجمة مفرداتها، وصياغتها إلى اللغات الحديثة بل يصفها أنّها سبب الإخفاق في الوصول إلى الضرورات الفكرية، فهو مردود باعتبار أنّ اللغة العربية لغة عامة وشاملة قد استوعبت الكثير من المفردات التي لا يحصى عددها.

ثالثاً: محمد شحرور:

لقد ذكر محمد شحرور عدة صور للوحي في كتابه (الكتاب والقرآن) منها:

أولاً: الوحي عن طريق البرمجة الذاتية في الكائنات الحية والظواهر الطبيعية: ويستند في ذلك لما جاء في قوله تعالى: ((وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ))[٧٥]، وقوله سبحانه: ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[٧٦]، وقوله عز وجل: ((يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا))[٧٧]، فهو يعتقد أنّ الوحي يكون في بنية هذه الأشياء (النحل ، السماء، القيامة)[٧٨].

ويظهر من كلام محمد شحرور في تعبيره بالبرمجة، وهو تعبير مجازي لما أراد الوصول اليه بكلامه عن الوحي فهو انفرد عن غيره في هذا التعبير ليأتي بجديد؛ كي يتميّز عن غيره في قضية الوحي .

ثانياً: الوحي عن طريق توارد الخواطر: ويقول شحرور: (إنّ هذا الوحي وارد لكل البشر فعندما يقع الإنسان في مأزق أو تحدث له مشكلة علمية تستحوذ على تفكيره فيسعى للخروج من ذلك المأزق ويستشهد بذلك على (تفاحة نيوتن) فيقول إنّ هذا النوع من الوحي قد جاء في الكتاب في قوله تعالى: ((وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِين))[٧٩]، وقوله سبحانه: ((وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ))[٨٠]، وغيرها من الآيات التي تحمل نفس المعنى، بأنّها ليس لها علاقة بالأمور الشرعية التي تتعلق بأم الكتاب، وإنّما له علاقة بالأمور الإجرائية والمعرفية حين الأزمات، ولا يأتي إلى الإنسان عشوائياً)[٨١].

وفي هذا النوع من الوحي لا خلاف عند المسلمين، وهو ما يسمى بالإلهام الفطري، وقد يكون للنحل، أو لأم موسى، أو لغيرها.

وقد حاول الكثير ممّن يشكّك في نزول الوحي القرآني على نبينا الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) بإثارة الكثير من الشبهات والمغالطات حول ظاهرة الوحي، فمنهم من قال إنّها حالة نفسية، ومنهم من قال إنّها حالة مرضية كالصرع والهستيريا، وذهب قسمٌ منهم إلى القول إنّ محمداً (صلى الله عليه واله وسلم) كان في أعلى حالات الصحة النفسية والجسدية، وإنّ ما جاء به قد اكتسبه من البيئة المكية التي كانت تحتضن الأحبار والرهبان، وزعموا أنّ محمداً كان يتعلّم من ورقة بن نوفل، وإنّه لم يكن أمّيّاً، وهذه كلها شبهات وافتراءات لا تصمد أمام الحقيقة.

الخاتمة والنتائج

وفي نهاية مطاف بحثنا هذا توصّل الباحث إلى جملة من النتائج لتكون حصيلة عمله وهي:

١- تعتبر ظاهرة الوحي من الأمور المهمة التي لها ارتباط مهم بالعقائد الإسلامية، وإنّ الرفض أو التشكيك فيها هو رفض وتشكيك بالقرآن الكريم.

٢- لم تكن للوحي صورة واحدة بل كانت هناك صور متعدّدة ذكرها القرآن الكريم في آياته الشريفة.

٣- إنّ قضية الوحي هي قضية عامة تشمل جميع الأنبياء، ولم تختص بنبينا محمد (صلى الله عليه واله وسلم).

٤- لم تختلف شبهات الحداثيين عن المستشرقين في قضية الوحي، وهذا ناتج من إنّ الحداثيين هم امتداد لذلك الفكر.

٥- إنّ أهم الردود والأدلة في الرد على المستشرقين والحداثيين هي الأدلة العقلية باعتبار أنّها أدلة متسالم عليها من الطرفين؛ لأنّهم لم يذعنوا لأدلة القرآن الكريم والحديث الشريف.

٦- لقد ذكر المستشرقون والحداثيون عدّة شبهات وإن كانت واهية ذات ألفاظ مختلفة، إلّا أنّها تهدف إلى معنى واحد وهو نفي الوحي عن النبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم).

٧- تركزت قضية رفض الوحي عند المستشرقين والتشكيك فيه على إنّها قضية تتعارض مع العلم الحديث والنظريات العلمية الاخرى وهذا لا مبرر له، إذ هي حقيقة ثابتة بالقرآن الكريم، والأدلة العقلية كان نتاجها دين صالح لكل الأزمنة وفي جميع الأمكنة الى قيام الساعة.

الهوامش:

[1] لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري، ١٥ / ٢٣٩ (مادة وحي).

[2] المصدر نفسه، ١٥ / ٢٤٠ .

[3] المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، ٥١٥ .

[4] الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ٢/ ١٣٣.

[5] ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ٣٢ .

[6] سورة الشورى/ ٥١ .

[7] ينظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني،٥١٠ .

[8] ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، احمد بن محمد القسطلاني، ١/ ٤٨ .

[9] المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ٢١٩ .

[10] سورة النساء/ ١٦٣ .

[11] وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين، حسن ضياء الدين عتر،٥٠ .

[12] ينظر: مصادر الوحي وانواعه في القرآن الكريم، الدكتور: ستار جبر الاعرجي .

[13] سورة الانعام/ ٤٨ .

[14] الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٢ / ٣٣٠ .

[15] الامامة، الشيخ محمد حسن ال ياسين، ٥ .

[16] الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٧ / ٣٩ .

[17] سورة النساء/ ١٦٥ .

[18] ينظر: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ٣١ .

[19] الوحي، د حسيب السامرائي، ٢٩ .

[20] مقدمة تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار المعتزلي، د. عبد الكريم عثمان.

[21] الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٧/ ٢٧٥ .

[22] مجلة كلية الاداب، حسيب السامرائي، ٢٩ –٣٠ .

[23] اعتقادات، السيد محمد باقر الصدر، ٧٧ .

[24] سورة الشورى/٥١ .

[25] سورة الفتح/ ٢٧.

[26] الكافي، الشيخ الكليني (٣٢٩هـ)، ٥/٨٠.

[27] ينظر: اراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر ابراهيم رضوان، ١/ ٣٧٤ .

[28] سورة النساء/ ١٦٤ .

[29] تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، ٢١٠.

[30] سورة البقرة/ ٩٧ .

[31] سورة الشورى/ ٥١ .

[32] سورة الانفال/ ١٢ .

[٣٣] سورة المائدة/ ١١١ .

[٣٤] سورة النساء/ ١٦٣ .

[٣٥] سورة القصص/ ٧ .

[٣٦] سورة النحل/ ٦٨ .

[٣٧] الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ١٨ / ٧٥ .

[٣٨] سورة فصلت/ ١٢ .

[٣٩] دراسات في العقيدة الاسلامية والاخلاق، لجنة من قسم العقيدة والفلسفة، ٤١ .

[٤٠] العقيدة والشريعة في الاسلام، جولد تسيهر، ١٤ .

[٤١] المصدر نفسه، ١٢ .

[٤٢] سورة آل عمران/ ١١٢ .

[٤٣] ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام الحميري(ت٢١٢هـ)، ١/١٦٥ .

[٤٤] ينظر: علوم القرآن، الحكيم، ١٥٧. ١٥٨ .

[٤٥] سورة الحجر/ ٢٢ .

[٤٦] سورة الذاريات/ ٤٩ .

[٤٧] سورة الزمر/ ٦ .

[٤٨] الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي، محمود ماضي، ٥٩ .

[٤٩] وحي الله، حسن عتر، ٧٩

[٥٠] محمد بين الحقيقة والافتراء (في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكيم رودنوس)، محمد ابوليلة، ١١٤ .

[٥١] ايثار الحق على الخلق، ابي عبدالله محمد بن المرتضى اليماني (ابن الوزير)، ٦٧ .

[٥٢] سورة الحاقة/ ٤٤ – ٤٧ .

[٥٣] سورة الاسراء/ ٨٨ .

[٥٤] وحي الله حقائقه وخصائصه، حسن عتر، ٢١٣ .

[٥٥] ينظر: العقيدة والشريعة، جولد تسيهر، ١٩ – ٢١ .

[٥٦] ينظر: محمد بين الحقيقة والافتراء، محمد ابو ليلة، ١٠٣ .

[٥٧] النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين، محي الدين الالوائي، ٤٥ .

[٥٨] الاستشراق في الفكر الاسلامي المعاصر (دراسة تحليلية تقويمية)، محمد عبدالله الشرقاوي، ١٣٧ .

[٥٩] سورة النجم/ ٣–٤ .

[٦٠] سورة النساء/ ١٦٣ .

[٦١] ينظر: صحيح البخاري، كتاب كيف بدء الوحي الى رسول الله، شرح ارشاد الساري ،احمد بن محمد القسطلاني، ١ /٦ .

[٦٢] المصدرنفسه، ٦/١ .

[٦٣] تاريخ الشعوب الاسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه فارس، ٤٣ .

[٦٤] اراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره دراسة ونقد، عمر بن ابراهيم رضوان، ٣٨٣.

[٦٥] لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، ١٢٩.

[٦٦] سورة الشورى/ ٧ .

[٦٧] ينظر: علوم القرآن، حسن حنفي، ٩١ .

[٦٨] سورة ابراهيم/ ٤ .

[٦٩] ينظر: القرآن الكريم وعلومه في فكر حسن حنفي عرض ودراسة، وجد علي التميمي، ٤٩ .

[٧٠] مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ٦٧ .

[٧١] الفكر الاسلامي نقداً واجتهاداً، محمد آركون، ٧٨ .

[٧٢] ينظر: المصدر نفسه، ٧٨ .

[٧٣] المصدر نفسه، ٧٨ .

[٧٤] الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ٣٨٢ .

[٧٥] سورة النحل/ ٦٨ .

[٧٦] سورة فصلت/ ١٢ .

[٧٧] سورة الزلزلة/ ٤-٥.

[٧٨] الكتاب والقرآن قراءة عصرية، محمد شحرور، ٣٧٥ .

[٧٩] سورة القصص/ ٧ .

[٨٠] سورة المائدة/ ١١١ .

[٨١] الكتاب والقرآن قراءة عصرية/ محمد شحرور، ٣٧٦ .

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**
- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد، عمر ابراهيم رضوان، ط/١، ١٤١٣ هـ .
- ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، احمد بن محمد القسطلاني، دار صادر، بيروت.
- الاستشراق في الفكر الاسلامي المعاصر دراسة تحليلية تقويمية محمد عبدالله الشرقاوي، كلية العلوم.
- اعتقادات، السيد محمد باقر الصدر، تحقيق: عبد الرزاق الصالحي، ط/١ ، ١٤٢٩هـ.
- الامامة، الشيخ محمد حسن ال ياسين، ط/١ بيروت ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م.
- ايثار الحق على الخلق، ابي عبدالله محمد بن المرتضى اليماني (ابن الوزير)، مطبعة الاداب، القاهرة ، ١٣١٨هـ.
- تاريخ الشعوب الاسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه فارس، دار العلم للملاين، بيروت، ط/٩ ، ١٩٨١.
- تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، ط٢، ١٤١٤ – ١٩٩٣ م، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان.
- دراسات في العقيدة الاسلامية والاخلاق، لجنة من قسم العقيدة والفلسفة، مكتبة الازهر الحديثة، (د.ط) ، ١٩٧٥ .
- السيرة النبوية ابن هشام الحميري (ت٢١٢هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح واولاده، مصر، (د.ط)، ١٣٨٣هـ ، ١٩٦٣ م.
- صحيح البخاري، كتاب كيف بدء الوحي إلى رسول الله، شرح ارشاد الساري، احمد بن محمد القسطلاني، دار صادر، بيروت، لبنان .
- العقيدة والشريعة في الاسلام، جولد تسيهر، دار الكتب الحديثة، مصر، ط/٢، (د.ت).
- علوم القرآن، حسن حنفي، بيروت، دار الامير، (د.ط) (د.ت).
- علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، ط٦، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم.
- الفكر الاسلامي، نقداً واجتهاداً، محمد آركون، تحقيق: هاشم صالح، ط/١، بيروت، ١٩٩٠م.
- القرآن الكريم وعلومه في فكر حسن حنفي عرض ودراسة، وجد علي التميمي، (اطروحة دكتوراه)، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، صبرا.
- الكافي، الشيخ الكليني (٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٣، ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.

•الكتاب والقرآن قراءة عصرية، محمد شحرور، ط/١، (د.ت)، القاهرة.

•لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، (د.ط)، (د.ت)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

•لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت٧١١هـ)، (د.ط) ١٤٠٥هـ، قم، ايران.

•مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

•محمد بين الحقيقة والافتراء في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكيم رودنوس، دار النشر للجامعات، محمد ابوليلة، ط/١، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.

•المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ط/١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣ م، مكتبة سلمان المحمدي، بغداد.

•مصادر الوحي وانواعه في القرآن الكريم، الدكتور: ستار جبر الاعرجي، مركز الرسالة، سلسلة المعارف الاسلامية.

•المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، دمشق ، ط/١ ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م

•مقدمة تثبيت دلائل النبوة ، القاضي عبد الجبار المعتزلي ، د. عبد الكريم عثمان .[٨١] مجلة كلية الاداب ، حسيب السامرائي.

•مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني، ط/٣ ، ١٣٦٢هـ ، ١٩٤٣م.

•الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

•النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين، محي الدين الالوائي، ط/١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

•الوحي، د حسيب السامرائي، مجلة كلية الاداب، بغداد، العدد٢١، مجلد ٢، (١٩٧٦-١٩٧٧)، مطبعة دار الحافظ .

•الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي، محمود ماضي، دار الدعوة، الاسكندرية، ط/١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

•وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين، حسن ضياء الدين عتر، دار المكتبي، ط/١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

•الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ط/٣ ، بيروت، مؤسسة عز الدين، ١٤٠٦م.